الجزريون - موطنهم الأول- ودوافع هجراتهم

د. عبد العزيز الياس سلطان
كلية الآداب – جامعة الموصل

من هم الجزريون[١]

الجزريون هم مجموعة الاقوام العربية القديمة، الذين اتخذوا من شبه جزيرة العرب او بعض اجزائها موطناً اولاً لهم وعاشوا فيها لفترات طويلة من الزمن، من الصعب تحديد بداياتها الاولى، ثم انطلقوا منها في فترات لاحقة على شكل موجات من الهجرات المتعاقبة بازمان مختلفة لاسباب سنأتي على ذكرها لاحقاً. وكانت وجهتهم في هذه الهجرات الى اجزاء مختلفة من العراق وبلاد الشام ومناطق اخرى مما يعرف اليوم بالوطن العربي، حتى اصبحت الاصول العربية فيها وفي مجمل الوطن العربي اليوم تطغى على تركيبة سكانه ولغاتهم. والجزريون جميعهم من العرب العاربة، ونقصد بالعرب العاربة الخلص منهم، اما العرب المتعربة او المستعربة فهم دخلاء وليسوا بخلص، والعربي منسوب الى العرب وان لم يكن بدوياً، والاعرابي البدوي وهم الاعراب والاعاريب جميع الاعراب[٢]. ويرى البعض ان من يقع عليه لفظ العرب جيل من الناس وهم اهل الامصار، اما الاعراب فهم سكان البادية والنسب الى العرب عربي والى الاعراب اعرابي، والتحقق اطلاق لفظ العرب على الجميع، وان الاعراب نوع من العرب، ثم اتفقوا على تقسيم العرب الى نوعين عاربة ومستعربة، فالعاربة هم الاوائل الذين فهّمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها[٣]. اما الى من ينسب العرب ومن اول من نطق فذلك امراً نرى علماء العربية حيارى فيه، وفي تعيين اول من نطق بالعربية، فبينما يذهبون، الى ان (يعرب) كان اول من اعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي، ثم يقولون لذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي، تراهم يجعلون العربية لسان اهل الجنة ولسان آدم، أي انهم يرجعون عهده الى مبدأ الخليقة وقد كانت الخليقة قبل خلق (يعرب) بالطبع بزمن طويل[٤]. والعرب العاربة (الجزريون) على اقوال النسابين هم من ابناء قحطان واسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين الذين هم العرب المستعربة أي ابناء اسماعيل في

عرف النسابين. وقحطان الذي يرد في الكتب العربية هو (يقطان) الذي يرد في التوراة (يقطان بن عابر بن شالخ بن ارفكشاد بن سام بن نوح)[٥] وهو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح. وبناءً على ماتقدم فإن هناك مطابقة تامة بين النسب الوارد في التوراة والنسب الوارد في الكتب العربية، مما يدل على ان الاخباريين ربما قد اخذوا علمهم بنسبه من روايات اهل الكتاب[٦].

موطنهم الاول :

على الرغم من قناعة الباحثين الذين أطلقوا مصطلح الجزريين على الاقوام العاربة بدلاً من المصطلح القديم الساميين بان الموطن الاول لهؤلاء الاقوام هو شبه جزيرة العرب او الجزيرة العربية، الا ان هناك اراء اخرى في هذا الموضوع قال بها بعض العلماء وتباينت فيها وجهات نظرهم، ففي حين قال بعضهم ان جزيرة العرب هي موطنهم الاول وساقوا ادلتهم في ذلك. ذهب فريق آخر الى القول إن اجزاء شرق افريقيا هي الموطن الاول لهم[٧] وقدم هؤلاء ايضا بعض الادلة التي استندوا اليها في رأيهم هذا. وهناك فريق ثالث يرى أَنّ المهد الاصلي للعرب العاربة (الساميين) هو ارمينية[٨]، وحجتهم في ذلك ان هذا المكان ربما كان الانسب الذي يتفق مع رواية التوراة بخصوص الطوفان، غير ان فريقاً رابعاً عدّ بلاد بابل هو موطن العرب العاربة (الساميين) الاول ومن هذه المنطقة هاجر العاربيون[٩]، فضلاً عن اراء اخرى غير ان هذه الاراء جميعها لاتتفق مع الحقائق الجغرافية والتاريخية واللغوية وحتى الانثولوجية وان الرأي الاول هو الاقرب للواقع والاكثر اتفاقا مع كل الدلائل. وعليه نرى ترك جميع الآراء التي تتعارض معه. وان تسمية العاربين بالجزريين هي التسمية الأصوب والاكثر تعبيراً عن انتسابهم الى مقر اقامتهم الاول وموطنهم الاساس شبه جزيرة العرب او الجزيرة العربية، والتي يمكن تحديد موقعها جغرافيا اليوم في الاقسام الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وهي أرض مترامية الاطراف تبلغ مساحتها (٣.٢١٥.٤٨٥) كم^{٢} وتحيط بها البحار من ثلاث جهات، البحر الاحمر من الغرب، وبحر العرب وخليج عمان من الجنوب والخليج العربي من الشرق[١٠]. وهي بذلك شبه جزيرة الا ان البلدانيين العرب المسلمين جوزوا تسميتها (جزيرة

العرب)[١١] وابرز مايميز ديموغرافية جزيرة العرب هو ان ارضها تتكون من ثلاث اشكال رئيسة من التضاريس الاول منها على شكل جبال في قسميها الغربي والجنوبي حيث توازي الاولى البحر الاحمر في حين تمتد الثانية من مضيق باب المندب وحتى مضيق هرمز (رأس مسندم) اما الشكل الثاني من تضاريس شبه جزيرة العرب فهو على شكل هضاب تغطي اقسامها مما يلي مناطق الجبال وهي عبارة عن كثبان رملية تظهر في بعض اقسامها نتوءات صخرية اعتاد العرب على تسميتها بالجبال، وهي معالم بارزة ومتشابه يستدل بها، اما الشكل الثالث من اشكال سطح جزيرة العرب فهو الواحات التي تتوزع في مناطق متفرقة منها وغالبا ماتكون في اطرافها وبخاصة في الجهات الشرقية منها كما يوجد بعض منها في المناطق الوسطى من ارض الجزيرة، ومع تنوع هذه التضاريس الا ان الصفة الغالبة هي الطبيعة الصحراوية والارض الرملية حيث تشكل النسبة العظمى من ارض جزيرة العرب الحالية وحتى جبال جزيرة العرب يبدو معظمها جرداء قليلة الغطاء النباتي مما يجعلها تشابه الارض الصحراوية من حيث بيئتها[١٢].

اما مناخ شبه جزيرة العرب في الوقت الحاضر فهو على العكس تماما عما كان عليه في العصور الجليدية، فهو حار جاف وذلك بفعل صبغتها الصحراوية ومما يزيد شدة حرارتها وجفافها انها لاتعرف انهارا كدجلة والفرات والنيل فضلاً عن قلّة امطارها.

ان الطبيعة الصحراوية والمناخ الحار والجاف في معظم مناطق شبه جزيرة العرب لم يمنع من وجود مساحات لابأس بها وجدت فيها جميع شروط الارض الزراعية الخصبة التي هيأت فرصا للتطور الحضاري المتقدم في تاريخ العرب القديم والمعاصر. ونقصد بهذه المناطق الاجزاء الجنوبية منها بشكل خاص ومناطق الواحات الواسعة المتناثرة على اقسام من ارض شبه جزيرة العرب كالحجاز وبعض مناطق شرق الجزيرة العربية على مقربة من سواحل الخليج ومناطق اخرى متفرقة منها. ان التباين في تضاريس ومناخ شبه جزيرة العرب المختلفة لم يمنع من اتفاق معظم الباحثين والمؤرخين على ان هذا الجزء من العالم هو الموطن الاول للاقوام العاربة (الساميين). اما الجزء الذي استقر فيه هؤلاء الاقوام قبل ان ينطلقوا في هجراتهم الى خارج منطقة الجزيرة فقد كانت لهم فيه اراء متعددة ايضا، حيث يرى (شبرنكر) ان اواسط شبه جزيرة العرب

ولاسيما نجد هو المكان الذي يفترض ان يكون الموطن الاول للاقوام (السامية) كما سماهم ومنه خرجوا بحسب رأيه الى الهلال الخصيب ومن ثم انتشروا الى مناطق اخرى. اما (فلبي) فذهب في دراساته المسهبة لاحوال شبه جزيرة العرب الى ان الاقسام الجنوبية منها هي الموطن الاصلي (للساميين) وفي هذه الارضيين نبتت السامية ومنها هاجرت بعد اضطرارها الى ترك مواطنها القديمة لحلول الجفاف فيها، وربما استند (فلبي) في رأيه هذا الى دراسات العلماء لاحوال شبه جزيرة العرب والى الحوادث التاريخية التي تشير الى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال. واليمن في رأي (فلبي) واخرين من المستشرقين هي مهد (العرب) ومهد الساميين، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الانحاء، وهي في نظر بعض المستشرقين ايضا (مصنع العرب) وذلك لان بقعتها امدت الجزيرة العربية بعدد كبير من القبائل، قبل الاسلام بامد طويل وبعد الاسلام[١٣].

دوافع الهجرات الجزرية

على الرغم من تعدد النظريات وتباين الاراء كما ذكرنا في تحديد الموطن الاول للاقوام العاربة (الجزريين) او الساميين كما سماهم المستشرقين، الا ان اهم وارجح المواطن يبقى وكما اسلفنا هو شبه جزيرة العرب باقسامها المختلفة وتضاريسها المتباينة. اما هجرتهم عن هذا الموطن وبحثهم عن مواطن جديدة للاقامة فيها وفي فترات مختلفة فقد كانت له اسبابه ودوافعه ايضا. وهذا ما سنتكلم عنه في الاسطر الآتية :

ان موضوع اسباب الهجرات الجزرية ودوافعها هو الاخر تباينت بشأنه الاراء واختلفت فيه وجهات النظر، بين المهتمين به فمنهم من يرى ان ضيق ارض الوطن من تحمل اعداد كبيرة من الناس فضلاً عن تزاحمهم على كسب معيشتهم دعاهم الى التحاسد والتنافس وحتى الكراهية والتفتيش عن وطن اخر بديل، ويرى آخرون ان ضعف الحكومات المركزية وتدهور الاقتصاد في اعقاب تهدم بعض السدود وتدمير بعض المشاريع الاروائية كان ايضا من اسباب هجراتهم، في حين يرى فريق آخر وربما كان رأيه هو الاقرب الى الواقع ان سبب هجرة الاقوام الجزرية من موطنها الاول شبه جزيرة العرب هو التغير المستمر الذي بدأ يطرأ على بيئتها ومناخها بعد آخر زحف جليدي

وماترتب عليه من انحباس للامطار وشيوع للجفاف اثر بالتالي على قشرتها وعلى احيائها، فهلك من هلك وهاجر من هاجر وقد استمر هذا التغير الافاً من السنين حتى حول بلاد العرب الى اراضي غلبت عليها الطبيعة الصحراوية وقلت فيها الرطوبة وغلب على اكثر بقاعها الجفاف[١٤]. من هنا ولمعرفة الاسباب الرئيسة التي دفعت الجزريين إلى هجرة موطنهم الاول لابد من العودة بالتاريخ الى الوراء الى المدة التي سبقت خروج اولى الهجرات من شبه جزيرة العرب، ونتأمل الواقع الذي كانت عليه في ذلك الوقت وماحدث لها بعد ذلك مما ادى الى خروج دفعات من سكانها تلو دفعات للبحث عن مناطق استقرار جديدة.

لقد كانت شبه جزيرة العرب في العصر الجليدي الاخير وبالتحديد في اواخر العصر الجيولوجي المسمى (البلوستوسين) الذي سبق الالف العاشر قبل الميلاد ارضا خضراء مأهولة بالسكان وتنعم بالامطار الغزيرة وتجري فيها الانهار وينبت فيها انواع متعددة من النباتات، وقد كون سكان شبه جزيرة العرب في هذه الفترة حضارة قديمة تعتمد على الري والزراعة، الا اننا لانعلم الكثير عنها بسبب عدم معرفة الكتابة حينئذ، وترجع اسباب تلك الامطار الغزيرة الى ان الطبقات الجليدية التي احدثها العصر الجليدي الرابع المسمى (فورم) والتي كانت تغطي مساحات واسعة من قارة اوربا بحيث جعلت تلك المنطقة ذات ضغط عالٍ، بينما وكانت مناطق الشرق الادنى القديم وافريقيا وشبه الجزيرة العربية ذات ضغط منخفض، قياساً بأُوربا، وقد ادى هذا التفاوت في الضغط بين المنطقتين، الى انتقال الرياح الباردة المحملة ببخار الماء من اوربا الى منطقة الشرق محدثة عصور مطيرة نمت خلالها النباتات والاعشاب حتى في المناطق التي هي صحراوية في الوقت الحاضر[١٥]. وما ان انسحب العصر الجليدي المذكور آنفاً في حدود الالف العاشر قيل الميلاد، حتى حدثت تبدلات مناخية كبيرة في المنطقة، والسبب هو زوال التفاوت في الضغط والذي كان سائدا بين منطقتي القارة الاوربية والشرق الادنى القديم إبان الزحوف الجليدية، مما ترتب عليه قلة في الامطار بحيث اصبحت امطار شبه جزيرة العرب موسمية، كما هي الحال في الوقت الحاضر، مما ادى الى حدوث الجفاف، وتوقف جريان الانهار واشتداد حرارة الجو ادى في النهاية الى تحول شبه جزيرة العرب

وبشكل تدريجي الى أراضٍ صحراوية غير صالحة للزراعة باستثناء مساحات صغيرة منها لاتكفي بسدّ حاجة السكان مما اضطر حينها الانسان الجزري إلى ان يسعى للبحث عن اماكن جديدة يجد فيها مقومات الحياة التي فقدتها جزيرة العرب بسبب حدوث الجفاف فيها(١٦).

ان الواقع البيئي للجزيرة العربية قبل حدوث الجفاف وبعده وما ترتب عليه من هجرات للاقوام الجزرية تطرق اليه الكثير من العلماء والباحثين في تاريخ شبه جزيرة العرب والاقوام الجزرية وهجراتهم، واتفق معظم من تطرق الى هذا الموضوع على حقيقة التغير الذي طرأ على بيئة شبه الجزيرة العربية بعد آخر الزحوف الجليدية والجفاف الذي تلاه في مختلف اجزائها والذي كان الدافع الرئيس برأى هؤلاء لانطلاق الموجات الجزرية وعزز اراء الباحثين او ربما اعتمد الكثير منهم اصلا في آرائهم على الكثير من المخلفات المادية الاثارية وبقايا السدود ومشاريع الري التي لاتزال بقاياها ماثلة للعيان حتى يومنا هذا كما اكدها القرآن الكريم والسنة المطهرة فضلاً عن الكثير من الروايات التاريخية التي تناقلتها كتب التاريخ العربي وماورد في الكثير من اشعار العرب قبل الاسلام، والتي اشرت كلها الى تغير بيئي اصاب واقع شبه الجزيرة العربية وادى في النهاية الى هجرة سكانها وسنتناول بعض هذه الجوانب بشيء من الايجاز.

١- <u>آراء العلماء</u>

يرى العديد من ان العلماء الجفاف الذي حلّ في شبه جزيرة العرب بعد آخر زحف جليدي كان الدافع الاكبر للهجرات الجزرية، حيث يقول (ول ديورانت) في كتابه : (قصة الحضارة) "ان مهد الجنس ومرباه جزيرة العرب، في هذا الصقع الجذب حيث نمو الانسان شديدا عنيفا، وحيث لايكون ينمو نبات على الاطلاق، تدفقت موجة اثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق اقوياء شديدي البأس لايهابون الردى بعد ان وجدوا ان الصحراء لم تعد تكفيهم، فكان لابد لهم من ان يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلاً

يعولهم ويقوم باودهم...[١٧]، ان ما قاله (ديورانت) يعبر بشكل واضح عن ان الواقع الصحراوي الذي اصبحت عليه شبه جزيرة العرب لم يعد بامكانه استيعاب السكان الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة في فترة سابقة مما يؤكد ان وضعاً امثل كانت عليه شبه جزيرة العرب قبل ان تتحول الى صحارى جافة.

ويؤيد (تشايلد) في كتابه : (الشرق القديم) ديورانت حيث يقول في الجفاف ما نصه (نحن الآن على ابواب انقلاب عظيم اذ سنجد بعد قليل جماعات من البشر هم المهيمنون على موارد عيشهم بحيازتهم على الحيوانات المدجنة وزراعة الحبوب ولابد لنا من ان نربط ذلك الانقلاب بالازمة التي سببها ذوبان الثلوج الشمالية وما استتبع ذلك من تقلص ضغط القطب الشمالي وتحول اعاصير الامطار من منطقة جنوب البحر المتوسط الى دورتها الحالية في اوربا الوسطى بعد ان كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق اعاصير الامطار التي تهب على اوربا الوسطى ويجعلها تجتازها وتعبر الى حوض البحر المتوسط وتستمر في سيرها من دون ان تستنزفها جبال لبنان فتصل الى بلاد مابين النهرين وجزيرة العرب حتى بلاد فارس والهند، فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الآن تتمتع بامطار منتظمة"[١٨].

اما العالم الايطالي (ليون كايتاني) فيرى ان هجرة الجزريين او (الساميين) كما يسميهم من شبه جزيرة العرب الى خارجها فمرده الى عامل الجفاف والتغيير الذي وقع في جو جزيرة العرب ويصور (كايتاني) في كتابه : (تاريخ الاسلام) شبه جزيرة العرب في الدورات الجليدية جنة، بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة وكانت سببا في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتاب التوراة عن (جنة عدن) وجنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر (كايتاني) في شبه جزيرة العرب، غير ان الطبيعة قست عليها وحولتها الى صحارى ورمالا اضطرت اصحابها الى الارتحال عنها الى اماكن توجد فيها ضروريات الحياة على الاقل فكانت الهجرات الى العراق وبلاد الشام ومصر والمواطن العربية الاخرى، وكانت هذه الهجرات كما يقول قوية وعنيفة بين سنة ٢٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ق.م[١٩]. وقد ايد المستشرق الالماني (فرتزهومل) ماذهب اليه (كايتاني) واضاف ان اودية شبه جزيرة العرب مثل وادي الدواسر ووادي الرمة ووادي

السرحان ووادي حوران هي الانهر المذكورة في التوراة على انها انهر الجنة (عدن) وهي انهر تقع في بلاد العرب[٢٠].

اما الباحثون العرب من المهتمين بتاريخ وجغرافية شبه جزيرة العرب فلم تكن آرائهم لتختلف عما ذكره الباحثون الاجانب بشأن الجفاف الذي تعرضت له شبه جزيرة العرب والحال التي كانت عليها قبل هذا الجفاف حيث يقول احدهم في هذا الشأن "في اقليم جغرافي كجزيرة العرب، واليمن منها خاصة، تقوم الامطار والسيول وماينظم للاستفادة منها على صهاريج وسدود ومصارف وسواقي، بدور رئيس مهم في مجال الري والزراعة قامت عليها حضارات عندما كانت هذه السدود والسواق قائمة ومعمورة ثم بادت هذه الحضارات عندما خربت وتهدمت"[٢١].

ويضيف الباحث نفسه ان وادي حضرموت الجاف حالياً، كان في الحقبة الى ما قبل (٢٠٠٠٠-٢٥٠٠٠) سنة ماضية نهرا عظيما يتدفق نحو الشرق وتصب فيه روافد لاحصر لها هي تلك الوديان الصغيرة التي تؤدي الى حضرموت[٢٢]. ان ماكان عليه وادي حضرموت، ربما كانت عليه بقية الاودية المذكورة آنفاً وهذا ما اشار اليه اكثر من باحث في هذا المجال وايدته المخلفات الاثرية لبقايا الاعمال المتعلقة بالارواء من سدود ومصارف وسواقي وقنوات جوفية (افلاج) وصهاريج وخزانات، وهي تمثل شواهد حية على جوانب التقدم وخاصة في مجال الزراعة والري في حياة العرب القديمة ومعظم هذه المخلفات تقع اليوم في مناطق صحراوية تغطيها الرمال.

٢- الادلة الآثارية

ان الاراء التي أبداها العلماء والباحثون واجمعوا فيها على ان شبه جزيرة العرب في العصور الجليدية كانت كثيرة المياه والامطار وتجري فيها الانهار والجداول، وتكثر فيها الغابات والاشجار والحشائش، وظلت كذلك حتى نهاية العصور الحجرية، اكدتها البقايا النباتية والحيوانية وكذلك كثرة الوديان، ووجود قيعان بعض البحيرات المندرسة، كالبحيرة اليابسة قرب تيماء وبقايا البحر المسمى (ابو بحر) في الربع الخالي ومدرجات الوديان المنتشرة هنا وهناك في تيماء وفي غيرها من ارجاء شبه جزيرة العرب[٢٣]، كما ان صور الحيوانات التي لاتتفق مواصفاتها البيولوجية مع بيئة شبه جزيرة العرب الحالية

والتي تكثر في مناطق مختلفة، نرى فيها ايضا اشارت واضحة تؤكد ماذهب اليه العلماء بخصوص الاختلاف في الدافع البيئي، وقد حفرت رسوم هذه الحيوانات على الواجهات الصخرية للنتوءات والكتل الصخرية على مفترقات الطرق في شبه جزيرة العرب، وعلى الرغم من عدم معرفة تاريخ هذه الرسوم حتى الوقت الحاضر الا ان الادلة الكتابية التي نقشت بجوار هذه الرسوم وعلى الصخور ذاتها استفيد في اعطاء تاريخ تقريبي لهذه الرسوم تأرجح زمنه بموجب ذلك ما بين ٤٠٠ ق.م–٥٠٠م[٢٤]. كما تم العثور على مخلفات مادية على شكل كؤوس مشكلة من قشور بيض النعام في بعض قبور البحرين وهي تؤرخ بحدود الالف الثانية قبل الميلاد، واخرى مماثلة لها في قبور منطقة "هجر بن حميد" في حضرموت تؤرخ بحدود القرن الثاني قبل الميلاد، وتؤكد هذه المخلفات الاثارية لهذه المواد المصنوعة من قشور بيض النعام على انتشار هذا الحيوان في مناطق واسعة من ارض شبه جزيرة العرب، ويقتات النعام النبات الى جانب بعض المواد الغذائية الحيوانية احياناً، واختفاء هذا الحيوان في الوقت الحاضر من مناطق شبه جزيرة العرب يؤكد التغير الذي حل فيها[٢٥]. ولم يكن النعام الحيوان الوحيد الذي اختفاؤه واقعاً بيئياً فقد تغير في شبه جزيرة العرب. وانما كانت هناك حيوانات اخرى اشرت الى هذا التغير منها الخنزير الذي نجده ايضا مصورا على بعض الواجهات الصخرية وكذلك صور الثيران التي تظهر بقرون طويلة واخرى قصيرة والابقار والثيران عموما تلتصق حياتها بالمناطق الزراعية الوفيرة المياه، اما رسوم الاسود فقد وردتنا من منطقة الحجاز مما يرجح ان تكون مناطق الزراعة ومصادر المياه وبخاصة العيون اكبر واكثر حجما مما هي عليه في الوقت الحاضر. وبالتالي هيئة بيئة ملائمة للحيوانات التي تعتاش عليها هذه الاسود مثل الضباء والأيائل والحمر الوحشية والابقار وغيرها[٢٦]. ومن الادلة الاثارية الاخرى على توفر المياه والزروع في ربوع شبه جزيرة العرب في العصور القديمة كثرة بقايا مشاريع الري كما اسلفنا في مناطق هي اليوم قاحلة وخالية من الحياة الا من بقايا هذه المشاريع الاروائية القديمة، ومنها على سبيل المثال بقايا حوض تجميع المياه شيد سوره الخارجي من الحجر يقع في منطقة فيد جنوب حائل وهي على مقربة من طريق الحج العراقي للديار المقدسة المعروف بطريق زبيدة[٢٧].

كما يوجد على شكل سور مستطيل مشيد بالحجر غير المنهدم عند "قريات الملح" شمال المملكة العربية السعودية، يعتقد انه حوض لتجميع المياه ويزيد طوله على الكيلومتر الواحد، وهناك بقايا ابنية وسدود لتجميع المياه ويزيد طولها على الكيلومتر الواحد، وهناك بقايا ابنية سدود لتجميع المياه لاغراض الشرب والزراعة في المناطق القريبة من خيبر، والطائف مثل سد الحصين جنوب خيبر، وبركة الخرابة شمال شرق الطائف[٢٨]. واذا ماتجاوزنا بقايا مشاريع الري القديمة الى مخلفات اثارية اخرى وجدنا بقايا مدن او قرى ومستوطنات اقيمت في مناطق هي الاخرى قاحلة في الوقت الحاضر منها مثلا مدينة (الفاو) الاثرية القديمة التي تقع بقاياها اليوم عند الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي بالقرب من ملتقى سلسلة جبال طويق مع وادي الدواسر، وكذلك قرية (الثاج) الواقعة الى الغرب من مدينة جبيل بمسافة (٨٠) كم بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية فضلاً عن مجموعة من المستوطنات التي تنتشر في المنطقة المحصورة بين حدود الكويت الجنوبية شمالا وجزيرة قطر من جانب الساحل وواحة جابرين من ناحية الارض وقد ازدهرت هذه المستوطنات في حدود الالف الرابع ق.م ويزيد عدد هذه المناطق المكتشفة على (٤٠) موقعا يقع معظمها اليوم في مناطق تفتقر لشروط الحياة الضرورية وفي مقدمتها المياه العذبة، وهذه اشارة اخرى تؤكد التغير البيئي الذي حصل في المنطقة[٢٩] .

ان ما طرحه العلماء من آراء أشرنا اليها وما اكتشفه الاثاريون من مخلفات مادية ذكرنا بعضاً منها يلقي بعض الضوء على الحياة القديمة، في شبه جزيرة العرب، وهي تؤكد بشكل لا يقبل الشك ان الواقع البيئي لها في عصورها القديمة يختلف عما هو عليه الآن. وان هجرة الاقوام لها كان بفعل التغيير البيئي التي تعرضت له والجفاف الذي اصابها في اعقاب آخر زحف جليدي. وقد عزز تلك الاراء والادلة الاثارية المدونات التاريخية لتراث العرب القديم وما جاء في اشعار العصر الجاهلي واخيرا ومع بزوغ فجر الاسلام جاء القرآن الكريم وفيه الكثير من الاشارات الواضحة الى اقوام قديمة عاشت في شبه جزيرة العرب وبادت، كقوم عاد وثمود. وماورد في القرآن الكريم من امثلة وتشبيهات واستعارات تخلق انطباعا واضحا عن بيئة زراعية تتدفق بالخير والعطاء يقابلها سعي

متواصل وجهود كبيرة يبذلها الانسان لاستثمار هذا الخير العميم تلقي كل الدعم والتبريك في تعاليم الاسلام السمحاء[٣٠]. وماورد بخصوص هذا الموضوع في القرآن والسنة يمكن ان يكون موضوع بحث مستقل.

أخيرا ومادمنا بصدد الكلام عن الجزريين ودوافع هجرتهم من موطنهم الاول شبه جزيرة العرب، لابد من ذكر بعض اهم الموجات الجزرية التي انطلقت باتجاه العراق وبلاد الشام.

الأكديـون

يمثل الاكديون اهم واقدم الهجرات الجزرية الرئيسة التي اتجهت صوب العراق واستقرت فيه، وربما كانوا من الجزريين الشماليين بالتحديد[٣١].

وعلى الرغم ان وقت دخولهم الى العراق غير متفق عليه على وجه الدقة الا ان الاعتقاد السائد هو انه قد حدث بعد ان سادت احوال الجفاف سهول الشرق الادنى وان الدافع وراء هجرتهم من شبه جزيرة العرب موطنهم الاول نحو العراق هو التغير في احوال المناخ الذي اشرنا اليه.

الامورِيون

اكبر البطون الجزرية التي هاجرت الى بلاد الشام في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، واستطاعوا ان يؤسسوا سلالاتهم في سوريا والفرات الاوسط في العراق وفي اشور وكان لهم دور كبير في الاحداث السياسية في العراق بعد سقوط سلالة اور الثالثة، واسسوا سلالات مهمة، في كل من بابا، ماري، اشور، اشنونا ايسن،لارسا[٣٢]. وذلك خلال الحقبة التي عرفت بالعصر البابلي القديم في تاريخ العراق القديم بحدود (٢٠٠٤–١٥٩٤ ق.م.)[٣٣].

الكنعانيون (الفينيقيون)

الكنعانيون او الفينيقيون كما سمّاهم الاغريق قبيلة جزرية، قدمت الى بلاد الشام في الفترة نفسها التي قدم بها الاموريون، الا ان الاختلاف بين المجموعتين الاموريـة والكنعانية هو ان الاولى استقرت في شمال سوريا وتأثرت بالحضارة العراقية القديمة، بينما تمركزت الثانية في الساحل وتأثرت بالحضارة المصرية القديمة [٣٤].

وعلى الرغم من ان الكنعانيين لم يتمكنوا من انشاء دول كبيرة، الا ان نشاطاتهم الصناعية والزراعية كانت كبيرة، كما اشتهروا بالتجارة البحرية وانشأوا مستعمرات لهم في مناطق بعيدة عن مراكز استقرارهم في سواحل بلاد الشام[٣٥].

الاشوريـون

من بين الاقوام الجزرية التي هاجرت من شبه جزيرة العرب الى العراق واتخذوا من حوض دجلة الشمالي مستقرا لهم، حيث اكسبوه بالتدريج اسمهم (بلاد آشور) وربما استقر الاشوريون اول امرهم في اعالي الفرات عند اطراف الباليخ وهو من فروع الفرات في سوريا[٣٦]، ثم عبروا الفرات في فترة لاحقة وبدأوا بالاستقرار في حوض دجلة الشمالي بحدود الالف الثالث ق.م[٣٧]. وكانت المنطقة التي استقروا فيها قبل مجيئهم اليها تعرف باسم (سوبارتو) الا انها حملت اسمهم بعد ان استقروا فيها واسسوا اولى مدنهم المهمة واولى عواصمهم مدينة اشور.

الآراميـون

احدى الجماعات الجزرية التي هاجرت من شبه جزيرة العرب في حدود منتصف الالف الثاني قبل الميلاد، واستقرت في أواسط الفرات وانشأت لها بعض الدويلات في سوريا مثل مملكة دمشق، وحماه، وحلب[٣٨]، وعرف الاراميون ايضا باسم اخلامو والتي تعني الرفاق، وقد انتشرت جماعات منهم في العراق وشمال سوريا ووسطها بين القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد[٣٩].

الكلديـون

فرع آخر من الاقوام الجزرية التي هاجرت من شبه جزيرة العرب، وحلت في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الاول قبل الميلاد وعلى اقل تقدير[٤٠] ويرى البعض انهم من الاقوام الجزرية التي نزحت من جنوب شبه جزيرة العرب وانتشروا في سواحل الخليج العربي واقسام من جنوب العراق في مناطق الاهوار والمستنقعات على طول نهري دجلة والفرات السفليين[٤١].

الخلاصة

إن المتتبع لتاريخ الاقوام العربية القديمة (الجزريين) او الساميين كما سمّاهم المستشرقين ربما يتوصل الى حقيقة مفادها ان الموطن الاول لهؤلاء الاقوام هو شبه جزيرة العرب على الرغم من الاراء الاخرى التي قيلت بهذا الخصوص. وان تسمية (الجزريين) هي ادق تسمية يمكن ان تطلق عليهم بوصفها مأخوذة عن موطنهم الاول. وان هؤلاء الاقوام قد عاشوا في هذه البقعة من الارض لفترات طويلة من الزمن عندما كانت ظروفها البيئية ملائمة لحياة الانسان والحيوان والنبات وذلك لما تتمتع به من امطار غزيرة ومياه وفيرة الا ان هذا الواقع قد تغير بسبب التبدل المناخي الذي شهده العالم في اعقاب آخر زحف جليدي وماترتب عليه من جفاف شهدته مناطق واسعة من العالم ولاسيما في القسم الجنوبي منه. ومن بينها شبه جزيرة العرب موطن الجزريين الاول، الذين اضطرتهم ظروف الجفاف الذي حلّ في موطنهم والتصحر الذي بدأ يصبح الصفة الغالبة على بلادهم الى ان يبحثوا عن مواطن جديدة اخرى لهم يجدون فيها مقومات الحياة وفي مقدمتها المياه العذبة، فكانت وجهتهم وديان الانهار في العراق وبلاد الشام ومصر وقد اثبتت الكثير من الادلة الاثارية وبقايا المشاريع الاروائية وخزانات المياه ونظريات العلماء وابحاثهم حقيقة الواقع البيئي الذي كانت عليه شبه جزيرة العرب ثم اصبحت عليه بعد الجفاف الذي طالها، وكيف ان ذلك الجفاف كان الدافع الاول والسبب الرئيس في انطلاق هجراتهم المتتالية الى العراق وبلاد الشام حيث المياه الوفيرة والاراضي الخصبة واستمرت تلك الهجرات لقرون عديدة واسست تلك الهجرات مراكز حضارية لابل حضارات مهمة في

تـاريخ الشـرق الادنـى القـديم ولاسـيما فـي العـراق وبـلاد الشـام، لانهـم فـي الاسـاس كـانوا اصحاب حضارات قامت على الزراعة والري بالدرجة الاولى.

الهوامش

(١) الجزريون : مصطلح اطلقه مؤخراً الباحثون العراقيون تحديداً على الاقوام العاربة بدلاً من المصطلح القديم (الساميين) الذي استعمله لاول مرة المستشرق النمساوي شلوتزر، وذلك في عام ١٧٨١ مستنداً في تسميته على ماورد في التوراة عن انساب نوح بعد الطوفان، وهذه التسمية لا تستند إلى اساس رصين من الواقع التاريخي ولاتدعمها المصادر المعتمدة والادلة المستندة إلى التمحيص الموضوعي والدقة العلمية، بخلاف تسمية الجزريين التي تتفق مع كل الادلة الجغرافية والاثارية والتاريخية واللغوية وتقوم على اساس علمي رصين. عن هذا الموضوع ينظر سليمان، عامر. الاقوام الجزرية (العربية القديمة) في بلاد الرافدين حتى نهاية الالف الثالث ق.م. وقائع ندوة الوطن العربي النواة والامتدادات عبر التاريخ- دائرة التراث العربي الاسلامي منشورات المجمع العلمي العراقي ٢٠٠٠م. ص٩-١١، وكذلك باقر، طه. من تراثنا اللغوي القديم. مايسمى بالعربية بالدخيل، من منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠، ص١٠٧، وكذلك الاحمد، سامي سعيد. المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بغداد، ١٩٨١، ص٣-٥.

(٢) ابن منظور. لسان العرب،مج١، بيروت، ١٩٩٠، ص٨٦.

(٣) الشمس، ماجد عبد الله. في اصل العرب ومواطنهم، دمشق، ٢٠٠٤، ص٣٠.

(٤) ابن منظور. المصدر السابق، ص٨٧.

(٥) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الاصحاح الحادي عشر، الآية ١٢.

(٦) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام،ج١، ط١، بيروت، ١٩٦٨، ص١٢.

(٧) صاحب هذا الرأي هو نولدكة الذي طرحه ١٧٨١ اذ رأى في الاجزاء الشرقية من افريقيا موطن من سمّاهم (الساميين) ينظر : الخازن، نسيب وهيبة من الساميين الى العرب، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠.

(٨) عبد الوهاب، لطفي. العرب في العصور القديمة- مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام. بيروت، ١٩٧٨، ص٥٠-٥٧.

(٩) ولفنسون، اسرائيل. تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٩، ص٣.

(١٠) الفكهاني، حسن. الموسوعة الحديثة، المملكة العربية السعودية، ج١، القاهرة ١٩٧٢، ص٢.

(١١) الهاشمي، رضا جواد. البيئة الطبيعية في تاريخ الجزيرة العربية القديم، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد (٣٠) ت٢، ١٩٨١، ص٢٤٣.

(١٢) الفكهاني، حسن. المصدر السابق، ص٢٨.

(١٣) الشمس، ماجد عبد الله. المصدر السابق، ص٧٧.

(١٤) ادارة الاثار والمتاحف. مقدمة في اثار المملكة العربية السعودية، وزارة المعارف ، الرياض، ١٩٧٥، ص١٨.

(١٥) رشيد، فوزي. نشأة الدين والحضارة والعصور الجليدية، مجلة سومر، العدد (٣٢) ١٩٧٦، ص١٥.

(١٦) الشرجي، جمال عبد الواسع قاسم. الجزريون، هجراتهم ومراكزهم في بلاد الرافدين حتى نهاية الالف الثالث قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٩٤، ص٢٥–٢٦.

(١٧) ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج٢، القاهرة، ١٩٤٩، ص٢٦٤.

(١٨) سوسة، احمد. حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، بغداد، د.ت، ص١١٣.

(١٩) الشمس. المصدر السابق، ص٧٧.

(٢٠) المصدر نفسه. ص٧٧–٧٨.

(٢١) عقيل، علي. نموذج تاريخي عن الري في وادي حضرموت، مجلة التراث، مج١، عدن، ١٩٧٧، ص١٨٨.

(٢٢) عقيل. المصدر السابق، ص١٩٠.

(٢٣) الدباغ، تقي. الوطن العربي في العصور الحجرية، بغداد، ١٩٨٨، ص١٣٠.

(٢٤) ادارة الاثار والمتاحف. المصدر السابق، ص١٨.

(٢٥) الهاشمي. المصدر السابق، ص٢٤٧–٢٤٨.

(٢٦) المصدر نفسه. ص٢٥٠–٢٥١.

(٢٧) ادارة الاثار والمتاحف. المصدر السابق، ص٦٨.

(٢٨) المصدر نفسه. ص١٦٢.

(٢٩) الهاشمي، رضا جواد. وحدة العناصر الحضارية في الخليج العربي في ضوء المكتشفات الاثرية، مجلة بين النهرين، العدد ٢٧، ١٩٧٩، ص٢٧.

(٣٠) الهاشمي. البيئة الطبيعية، المصدر السابق، ص٢٦٠.

(٣١) باقر، طه. علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، سومر، حج (٥)، ١٩٤٩، ص١٢٣.

(٣٢) الشرجي، جمال. المصدر السابق، ص٣٥.

(٣٣) باقر، طه. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ط١، بغداد، ١٩٧٣، ص٤٠٤.

(٣٤) حتي، فيليب. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق، بيروت ١٩٥٨، ص٨٥.

(٣٥) الشرجي، جمال. المصدر السابق، ص٣٦.

(٣٦) سفر، فؤاد– اشور– بغداد، ١٩٦٠، ص٢.

(٣٧) باقر، طه. المرشد الى مواطن الاثار والحضارة، بغداد، ١٩٦٦، ص٥.

(٣٨) الشرجي، جمال. المصدر السابق، ص٣٧.

(٣٩) المصدر نفسه. ص٣٧.

(٤٠) سليمان، عامر. العراق في التاريخ القديم، ج١، موجز التاريخ السياسي، الموصل ١٩٩٢، ص٢٤٦.

(٤١) اوتس، جوان. بابل تاريخ مصور، لندن، ١٩٧٩، ترجمة سمير عبد الرحيم الچلبي، بغداد ١٩٩٠، ص١٧٢.

ABSTRACT

Al-Jezaryoun – Their First Homeland – The Motives of Their Immigration

The present research studies the tribes of Al-Jezaryoun who took the Arab Peninsulas as their first homeland but they immigrated to Iraq and Syria after the drought. This study points out how the Arab Peninsula had been green land and it was Know of its

rain and its agriculture. Different plants grew in quantities which were sufficient for all kinds of animals. But this area has been transformed into desert because of the radical changes in temperature.

As a matter of fact, the scientists in general and the archaeologists in particular gave their own opinions about this change. They proved that this area suffered a radical change in weather which obliged the population to immigrate in successive groups to Iraq and Syria.